عفـــراء الغجرية

للأستاذ محمود الخفيف

كان على صهوة مهره الجميل ذات صباح من أصباح بشنس البهيجة فى طريقه إلى حقل من حقول أسرته المترامية البعيدة ، وقد برزت الشمس من وراء كِلَّتها الوردية، وأخذ ذوبها المسجدى يرف فى ذرى الأغصان وأطراف السعف وأجنحة الطير . وكان نسيم الصباح الندىُّ ينفح الناس والشجر والدواب فى تلك البطاح المنبسطة التى لم تبق فيها مناجل الحاصدين إلا جذور القمح ، والتى تلمح العين فيها على أبعاد ، مزارع القطن الخضراء ، وقد أخذت تدب القوة فى شجيراته الملوقة المصفوفة ...

وكانت الحقول آهلة بالناس ، فهنا وهناك جماعات الحاصدين قد تحلقوا حول الفطير والعسل ، أو تمددوا على فرش الحسيد ، أو انحنوا فرادى على السنابل الذهبية يجذونها بمناجلهم ... وهنا وهناك حاملات الفطور بين غاديات ورائحات ، ولاقطات السنابل لا يزال بعضهن يلتقطنها ؛ بينما يخطر بهـا الأخريات حزماً على رؤوسهن يزداد بها قوامهن رشاقة وملاحة ؛ والطرق إلى القرية تتقاطر فيها الإبل تحمل السنابل ويتبعنى خلفها الفلاحون — وهم بين هاتف وزامر — وبينهم بعض البدو ممن يهبطون القرى بجمالهم فى هذا الموسم لنقل أحمال الحصيد إلى البيادر ...

كان كل شىء باعثاً على البهجة ، فما ترى العين ولا تسمع الأذن إلا فيض السرور ؛ ولكن « حسيناً » كان يحس وحده الانقباض وسط هذا المرح الغامر ... وكم كان يحسد هؤلاء الفلاحين على ما رأى من مظاهر هنائهم ، وكم كان يتمنى لو أتيح له مثل ما يتاح لهم من نعيم ، ولو اشتراه بما يملك جميعاً ! بل لقد كان يحسد مهره ، وقد خيل إليه كأنما طاف به طائف من هذا السرور ، فهو يتبختر تبختر النشوان ، حتى لو تكلم لباهى بفتوته وجمال غرته ، ولام صاحبه على ما يبدو عليه من هم !

وتنهد الفتى ، وقد ذكره ذلك السرور شجونه ، واستحث مهره يريد أن يصل به سريعاً إلى حيث كان يريد أن يقضى النهار فى منعزله ، فى ذلك الكوخ القائم على ضفة الترعة الكبيرة ، بالقرب من أكواخ تلك الأسرة البدوية التى تقيم هناك منذ سنين لحراسة الزرع ؛ وما كان يأوى حسين إلى ذلك الكوخ إلا حين كان يضيق بهمه ، وتثقل على نفسه الحياة

وانعطف به مهره عند نهاية قناة طويلة تجرى وسط مزارع أسرته ، فلم يكد يتجه اتجاهه الجديد ، حتى وقعت عيناه خلف شجرة كبيرة على بعض أخبية للبدو لم يرها من قبل هناك ، ينبعث الدخان من كواينها ، وتنبح الكلاب المارين بها . ونظر ، فإذا هو يرى بأحد هذه الأخبية فتاة مضطجعة ، عجب لأول وهلة كيف يتأتى وجود مثلها فى خباء من الشعر ، وهى لولا ملابسها البدوية ، وحليها البدوية ، لظنها الرائى إحدى غانيات القصور ، فى وجهها الرائع القسمات ، وفى بدنها البض ، مخايل النعيم والترف ، وفى سمتها معانى الكبرياء والأنفة ، هذا إلى بياض بشرتها على نحو لا يكون إلا فى الناعمات البيض من ربات الجمال ...

ورشقته الفتاة بنظرة من عينيها الدعجاوين الرائعتين ، نظرة فهم بفطرته منها كثيراً من المعانى : ففيها الإغراء والدلال ، وفيها الإعجاب به وبمهره الجميل ، وفيها الأنفة وعدم المبالاة ، وفيها الإقرار بما يبدو عليه من جاه ، وفيها الإيحاء إليه بجاهها هى وإن كان من نوع آخر غير جاهه ، نوع كم ذل له كل جاه ، وكم دانت له من جباه ... وسار ، وقد انطبعت فى مخيلته صورة هذه البدوية الجميلة ، ورآها بين من أحطن بها كأنها وردة رائعة فى بقعة من الشوك ... وحدثته نفسه وهو من لا يهاب ولا يضطرب أن يرجع ، فيجلس ساعة بين هذه الأخبية ليرى مبلغ كبرياء تلك الفتاة ، وهو لم ير هناك رجلاً ولا فتى ، ولن يضيره أن يحضر الرجال جميعاً ، فهم يقيمون فى ملكه ، ولا يسعهم إلا الإذعان لسلطانه ... ولكنه ما لبث أن رغب عن ذلك ، ومضى فى سبيله إلى منعزله ...

* * *

وبلغ كوخه فترجّل وأسرع إليه صبى من البدو المقيمين

هناك فأخذ المهر إلى مربطه ؛ وجلس حسين فى الكوخ ينظر إلى الماء فى الترعة الساكنة الهادئة ويمنى نفسه بيوم هادئ ؛ وطافت برأسه أول الأمر طيوف همه ، ثم طاف بها خيال تلك البدوية الجميلة، وتمثلت له عيناها الجريئتان الساحرتان، فسرى عنه بعض ما به لحظة أسلمه بعدها إلى وجد عميق إذ تداعت إليه آلام حبه ولواعج قلبه ... وأفاق من أحلامه على صوت ارتفع من قرب بالتحية ... ونظر فإذا الشيخ مصطفى مقبل نحوه ، وامتعض حسين ولكنه أخفى امتعاضه بابتسامة متكلفة قائلاً : « وعليكم السلام يا عم الشيخ مصطفى . من أين أنت قادم ؟ »

— من عزبة على بك ، حيث كنت أحادثه فى شأن الأطيان التى يريد عمك البك استئجارها وقد قضيت الليل عنده

— هنيئاً لعمى ما يملك وما يستأجر ... أما أنا ... ولكن ماذا أقول ربنا موجود يا عم الشيخ مصطفى

— يا سى حسين بك دائماً تشكو ، قريباً تأخذ ملكك وتنعم به ، المسألة زيادة حرص من سيدنا البك عليك

— قريباً ... نعم قريباً ، بمشيئة الله وبإرادتى أنا لا بإرادة سيدنا البك

وخشى الشيخ مصطفى أن يسمع عن سيده ما لا يحب ، فاستأذن ونهض يريد الانصراف ، ومد يده إلى حسين فسلم عليه وهو مضطجع والشر يلمع فى عينيه وقال له وفى وجهه جذوة الغضب : « قل لسيدنا البك إن حسين لم يعد صغيراً وهو لن يطيق بعد اليوم أن يحيا هذه الحياة وله عندك أكثر من ثلاثمائة فدان ... كفى ... كفى أنى انقطعت عن التعليم بسبب شحه على وكنت قريباً من النهاية ... لا ! لا ! الصبر بعد اليوم مذلة »

ومضى الشيخ مصطفى ، يشيعه حسين بلعناته ، وقد كان هذا الرجل من أبغض الناس إليه ، لما عرفه عنه من الملق والمداهنة وشدة المكر ، هذا إلى أنه لا يذكره عند عمه إلا بالسوء كأنه يرى فى ذلك وجهاً من الزلفى

وتشاءم حسين برأى الشيخ مصطفى كاتب زراعة عمه ونائبه فى أعماله وزاده مرآه همّاً على هم؛ وتذكر أنه ما كان يراه مرة أيام كان طالباً إلا رسب فى امتحانه أو أصابه المرض إن لم يعقب مرآه امتحان

والتفت حسين نحو الترعة يريد أن يغيب فى سكونها ثورة نفسه فأبصر تلك البدوية الحسناء وقد حسرت ثوبها عن ساقيها الجميلتين ونزلت فى الماء تغترف منه فى إناء صغير من الفخار ؛ وتبدت لعينيه كأنها تلك الجنية التى كان يسمع من أوصافها وهو صغير ما كان يخفق له قلبه رعباً ... ولقد خفق قلبه الآن لمرآها ولكنها اليوم خفقات الإعجاب بهذا المنظر الساحر الفاتن ...

وكأنما كانت بما تأتيه من حركاتها الرشيقة تدعوه ليحدثها وما كان بحاجة إلى هذه الدعوة فقد خف إليها وحياها فى جرأة فردت فى فتور وهى تغريه بعينيها وتتكلف الحياء فتشيح بوجهها عنه وهى منحنية على الماء ، وسألها عن اسمها فتباطأت لحظة وهى تبسم له ابتسامة نفذت إلى قلبه ثم قالت : « خادمتك عفراء ... » ووثبت إلى الشاطئ ووضعت الإناء فوق رأسها وهمت معجلة بالانصراف ، فاستوقفها فتأبت ، فقال : إنه لن يسمح لها بالسير إلا على موعد . فضحكت وقالت : حتى ترى القمر فى الضحى ؛ وأجاب من فوره: ها قد رأيته ، وأشار إلى وجهها الجميل ...

ولم تكد تخطو حتى مر بالكوخ فتى فى نحو الثلاثين كره حسين مرآه ، ففى لفتته لفتة الذئب ورآه ينظر نحو عفراء نظرة ملؤها الغضب والغيرة

عاد حسين إلى القرية بعد عشرة أيام قضاها فى منزله على ضفة الترعة ، حيث كانت توافيه إليه عفراء كل ليلة فتجلس معه ساعة أو بعض ساعة

ووصل إلى منزل عمه وقد غربت الشمس فوجده جالساً على كرسيه أمام داره وحوله جلساؤه وعلى مقربة منه كاتب زراعته ؛ وألقى الفتى إليهم السلام فردوا جميعاً إلا عمه فقد نظر إليه نظرة كريهة لمح فيها لأول مرة إلى جانب البغض ما يشبه التشفى ... وعجب حسين أن رأى معانى الرثاء واضحة فى نظرات من لقيهم من الخدم وقرأ على وجوه الخادمات وبخاصة عزيزة أن كلا منهن تريد أن تفضى إليه بنبأ ، فاضطرب قلبه فى جوانحه وقد فهم كل شئ ...

ونادى عزيزة فأقبلت عليه لا تدرى كيف تفضى إليه بما تريد من نبأ ، فارتسمت على شفتيه ضحكة متكلفة حزينة كأنما يقول

لها بها : هيه لا تخافى . وقالت عزيزة « يا سيدى حسين ستى ثريا هانم خطبوها خلاص وكتب الكتاب بعد شهر ... »

وأحس كأن قلبه يدى فى جوانحه ؛ وتقطعت أنفاسه كأنما مسه نصب شديد ، ولكنه تجلد ريثما صرفها ، ثم أسند ظهره إلى حائط البيت يخشى أن يسقط على الأرض . . . ثم مشى يجر رجليه فأوى إلى مضجعه وجلس فى الظلام ساعة ...

وبث اليأس فى قلبه البأس والقسوة فلن يعبأ بعد اليوم بشئ وهو يريد أن يعرف أولا ماذا ترى ابنة عمه فيما أريد لها، ولذلك وثب من مكانه لا يدرى أين يذهب ولا من يسأل ، وفى مخيلته نظرة عمه وما فيها من معانى التشفى ، وفى نفسه وساوس وهواجس ونيات سود فزع حتى فى ساعة يأسه منها ... وما قيمة حرمانه مما يرث إلى جانب حرمانه من أمله الذى لا يرى للحياة معنى من دونه ؟ ولم يكد يخطو من منزله إلى منزل عمه حتى رأى عزيزة فناداها وهم بسؤالها ولكنه لم يعرف كيف يدير الحديث إلى غرضه ففهمت ما يريد فقالت فى لهجة الواثق : « ما تخافش أبداً يا سيدى حسين أنا عارفه ... »

— عارفه إيه ؟ هل قالت لك حاجة ؟ لازم أعرف

— لا مافيش حاجة إنما أنا عارفه وبكره تشوف وابقى قول عزيزة قالت لى ولى عندك الحلاوة

وانصرفت عزيزة مخافة أن يراها سيدها ، ووقف حسين فى مكانه يدير كلامها فى عقله متسائلاً هل أتت به من عندها أم سمعت شيئاً من سيدتها ولكنها لا تذكره لأنها لم تؤمر بذكره ؟ وفزع بآماله إلى الرأى الثانى فهدأت ثورته قليلاً

مضى حسين إلى (دوار) عمه، وجلس وحده فى ركن هناك، وظل يتفكر فى همه مطرقاً حتى أحس بيد على كتفه فرفع بصره فإذا هو ابن عمه أحمد ، وكان هذا على خلاف أبيه ، يبدى المودة لحسين ، ويكاشفه بما فى نفسه ... ومال الحديث بين الفتيين أول الأمر إلى الأرض التى يريد أن يستأجرها البك بالقرب من عزبة على بك ، وأظهر أحمد خوفه من عاقبة هذا العمل ، ثم أفضى إلى حسين أن على بك يستأجرها كل عام من البنك ، وعلى بك رجل خطر فتاك وبينه وبين أبيه ضغائن وإحن قديمة وليس من الحكمة أن يأتى أبوه هذا العام فيغرى البنك بأن يأخذها هو نظير زيادة فى الإيجار ، وليست به حاجة إليها ، بينما يحتاج إليها على بك أشد الحاجة لأنها تفرج عنه ضائقته التى يعانيها منذ بضع سنين، فضلاً عما فى فعل والده من معنى التحدى والتعدى وهو أمر له خطره الشديد عند الأمر

ووثبت إلى ذهن حسين صورة ذلك الفتى الذى مر به غداة ذهب إلى كوخه ، والذى كره حسين مرآه ورأى الإجرام واضحاً فى وجهه الشبيه بوجه الذئب ؛ ولم يدر حسين لم يذكر الآن ذلك الفتى ولم يبعث تذكره فى قلبه الرهبة ويشيع فى نفسه الكآبة . ورأى حسين فى وجه ابن عمه أنه يريد أن يحدثه فى أمر ، فسبقه حسين إليه وقال ضاحكاً : « مبارك النسب الجديد يا سى أحمد »

— لا دى مسألة وتفوت . عمك يريد معاندتك . . . إحنا كلنا معاك ، مين يفوت ابن العم ويفضل الغريب — لا تهتم غاية ما فى الأمر لا تعاند عمك . وازدادت المحبة فى قلب حسين لابن عمه أحمد ، وقد تبين فى لهجته الجد والصدق

* * *

لم ينم حسين ليلته إلا غراراً وقد ذهبت به الهواجس كل مذهب ، ولما أخذته سنة رأى فى نومه أنهم قد ذهبوا به إلى القبر وأنه فزع من ضمة القبر وظلمته ؛ وأنقذته الديكة بتصايحها من حلمه المخيف ، فهب ، ولكنه تمنى لو كان الحلم حقيقة . . . أتزف ثريا إلى غيره وهو حى ؟ . . . ثريا ابنة عمه التى ما أحب غيرها وهى منذ الصغر مسماة عليه ؟ أكان يفعل عمه ذلك لو كان أبوه حيًّا ؟ وماذا جنى حتى يطعنه عمه تلك الطعنة ؟ لا شىء إلا أنه يطالب بحقه . . . وما قيمة الحياة مع هذا الهوان ؟

وتمثلت له أيامه الجميلة ، أيام سعادته بحب ابنة عمه ، أيام كان يناقلها الأحاديث العفة ، وهى مطرقة فى سذاجة خلوة تستروح نسمات الحب ، وتحلم أحلام الحب ، وترى فى ابن عمها دنيا آمالها ، ويرى فيها جنة أحلامه . . .

وعول من فوره أن يذهب إلى منزله على ضفة الترعة ، فما يطيق العيش على مقربة من عمه . . . بل إنه ما يطيق الوجود

كله ، وامتطى مهره وانطلق بعد أن قابل عزيزة ؛ ومر فى طريقه بخيام البدو فلم ير عفراء هناك . . . على أنه كان من همه فى شغل عنها وعن سالف لهوه معها .

* * *

— كيف الحال يا شيخة العرب ؟

— الحمد لله . . . ربنا يخليك يا سيدنا البك

— مين هوه الجدع اللى كان هنا الغريب ده ؟

— ربنا يكفينا شره ... الله يسهل له ... دا بعيد عنك ... دا يقتل الرجل بجنيه أو بكيلتين حب

— ولم يأتى عندكم ؟

— دا يروح عند أى جماعة من العرب ، ما حدش يقدر يكلمه . . . يا ما ياخد من هنا خبز ولحم وشاى . . .

وكان حسين يعرف الكثير من أحوال هؤلاء الأعراب الذين يحترفون القتل ، وليس يدرى لم لاح له شبح الجريمة منذ رأى ذلك الأعرابى ... هل جاء لقتل عمه ؟ يفعلها على بك ولا يبالى ...

فكر حسين وأطال التفكير ، وبينما هو يقلب الأمر على وجوهه ، إذ لمح عفراء مقبلة تخيت باسمة ولمحت عيناها السريعتان الهم فى وجهه ، فقالت مداعبة :

— أعرف البخت وأقرأ الضمير ... فهل تريد ؟

— أين الرمل والودع ؟

— لا ... يكفى هذا الطمى ... ارم بياضك

ودهشت الغجرية أن رأت حسيناً يرمى إليها جنيهاً براقاً كعين الشمس ، ولم تصدق أنه لها أول الأمر حتى استيقنت من ذلك فراحت تقول وهى تخطط الطمى بأصبعها :

— عدو جديد ... احذره ، ولكن الوردة لك لا لغيرك ... صلى على النبى ... واحد يكرهك وواحد يوزّ عليك والباقى يحبوك وانت منصور ... شر كبير ولكن يفوت وربنا يسلم

وسكتت العرافة وتلعثم لسانها ، وجرت صفرة فى وجهها الوردى ، واختلجت عيناها واضطربت أصبعها ، ثم قالت :

— وفيه وردة ثانية، لكن آه ! تعرفك وتتملى نورك، وانت موش دارى

وفهم ما تريد ولكنه تغابى ، ودنت العرافة منه وهمست فى أذنه كلاماً دق له قلبه وانطفأت حمرة وجهه وارتعدت مفاصله .. وانطلقت وبودها لو عرف الوردة الأخرى وشمها ثمة ...

إذاً فقد أصبح الوهم حقيقة ... فهذا الذئب ما جاء إلا ليفتك بعمه ، ولكن من أدرى عفراء ؟ لعلها سمعته يفضى بسره إلى زميل له من البدو . وماذا يفعل حسين ؟ لقد مرت برأسه فكرة ارتاع منها وانتفض لها جسمه ... لا ، كيف يسكت؟ أيطيق أن تفجع ثريا فى أبيها ؟ ... وهو ؟ أليس هو عمه على الرغم من كل شىء ؟ ألم ينحدر هو وأبوه من صلب واحد فهو بذلك قطعة من أبيه ... ؟ وكيف يلقى الله ودم عمه على يديه ؟ وكيف يهنأ بعيشه بعد الجريمة ... إنه يحس أن سكوته اشتراك بكل معانى الاشتراك

ويوسوس له الشيطان فيقول : هبك لم تعلم ومات عمك أفلا تتمتع بملكك وحبيبة قلبك ؟ كلا ... كلا ... إن الدم لا يهون؛ وهو يعلم ما يبيت لعمه ... ولكن كيف تزف ثريا إلى غيره ثم لا يحدث ذلك إلا نكاية فيه ؟ ويحه ما باله ! تنازعه هذه الهواجس والأمر بين ؟ ماله يلتفت نحو الترعة ؟ أيريد أن يعبر إلى العدم لجّيا ؟

* * *

قضى ليلته مشرد اللب خائر البدن تنزّعه الرؤى السود وتنهش أحشاءه المخاوف ، وبات يخشى على نفسه هو ، ومن يدريه فلعل ذلك الذئب قد علم من حيث لم يدر هو ولم تدر عفراء ، بما أفضت به إليه ... لعله رآها تهمس فى أذنه ومثله من يرتاب فى كل شىء ومن يفهم باللمحة الخاطفة ، وأغمض جفنه، فرأى وهو بين اليقظة والنوم أنه ماثل أمام أبيه مغلول اليدين والدماء على ملابسه وبديه ، وعمه فى أكفانه ينظر إليه من كثب ولا يستطيع أن يتكلم ... ومرت بوجهه أنفاس الفجر الندية فقام وهو لا يكاد يقوى على القيام ... ثم عقد النية أن يخبر الشيخ مصطفى بما علم وهو الكفيل بأن يقضى على الذئب قبل أن يقضى الذئب على عمه

وأرسل من جاءه بالشيخ مصطفى ، وجلس كاتب عمه بين يديه ساكتاً ، وسكت حسين لحظة

— تألمت والله يا سيدى حسين لما علمت بنبأ الخطوبة الجديدة

— ليه ؟ هذا نسب عال ...

— على كل حال أنت أولى من الغريب ولـكن ما الحيلة ؟

— يا سيدى دى قسمة وربنا هو اللى عمل كده ... هل يكون العقد بعد شهر صحيح ؟

— لا ، ربما كان قبل ذلك فالبك مستعجل

وأمسك حسين وصمم على كتمان ما علم ، ولـكنه حار كيف يصرف الشيخ مصطفى ... واستأذنه لحظة وراح يمشى على ضفة الترعة جيئة وذهاباً وهو ضائق بما كان يبدو له من نظرات التشفى فى وجه الشيخ مصطفى وإن بالغ فى إظهار تألمه ... وناداه فأفضى إليه بما علم ، ثم صحبه إلى القرية وقد أصبح يخاف من كوخه

وانقضت أيام ، أخذ يزداد فيهما حسين قرباً من عمه بعد أن كان موضع الريبة والحذر الشديد ، فقد اتهمه الشيخ مصطفى عند عمه بتدبير الجريمة ، ولكن الشيخ مصطفى ما لبث أن جاء من لدن عفراء بالخبر اليقين ... وأجل العقد الذى أريد من قبل ليحل محله بعد التخلص منه عقد آخر ... وأخذت الأيام تبتسم لحسين بعد عبوس مخيف طويل، ولم يعد يكدر على الأسرة صفوها إلا خوفها وحذرها البالغ على حياة البك ، ذلك الحذر الذى كان يتجلى فى إحاطة منزله ليلاً بالحرس الساهرين

ولم تحل يقظة الحراس دون أن تفزع الأسرة كلها بعد المشاجرات ليلة من صوت انطلاق بندقية استقر مقذوفها فى كتف البك وهو فى مدخل الحارة المؤدية إلى بيته

وهرع إليه ذووه يعتقدون أنه قد فارق الحياة ... ولـكن الله سلم فحالته لا تنذر بالخطر ... لقد أخطأ الجانى مرماه ؛ وشغل الناس هول الفزع عن تعقب المجرم ، فتسلل تحت جنح الظلام وهو من يعرف كيف يفلت مهما نصب فى طريقه من الفخاخ

ولئن أخطأ الذئب مرماه هنا فلقد أصابه بعد ساعة أو بعضها فى مكان آخر ؛ فهؤلاء البدو يهبون من خيامهم مذعورين على صـوت مقذوف ... أعقبه صرخة ، ونظروا على ضوء مصباح صغير فإذا الدم الحار يتدفق من قلب عفراء ، ووجهها الجميل لا تزال عليه بسمة أحلامها وهو متجه إلى السماء ...

الخفيف

الفصول والغايات

فى تمجيد الله والمواعظ

وهو معجزة أبى العلاء المعرى فى النثر

لم يبق منه إلا نسخ محـدودة

فاطلب نسختك قبل نفادها

يباع فى ادارة الرسالة وثمنه ٣٠

بمناسبة طبع الجزء الثانى نتعارف بتقديم

ديوان الصـدح الأول بالمجان

لهواة الأدب ، وناشئة الأدب ، والمشتركين فى « الرسالة »

إذا كنت أحد هؤلاء ، فابعث بعنوانك أو اسمك المطبوع الملصق بغلاف هذه المجلة إلى شاعر المنيا :

« خليل جرجس خليل ، رئيس اللجان الأدبية بالمنيا »

يصلك الديوان مع قضية الرافعى مجلداً ؛ وهو تحفة فنية نفيسة فى كتاب أنيق يحوى خمسة أبواب تنتظم طوائف من الطرائف ، وبدائع من روائع الشعر الوجدانى المشبوب

اشفع الطلب بثلاثة قروش طوابع أجرة البريد والاعلان — فى السودان والخارج إذن بوستة بما يعدل سبعة قروش لنسختين

أما أصحاب المؤلفات فسنتكفل نحن بنفقات إرسال الديوان وغيره إليهم